

التدابير الشرعية للحد من ظاهرة انتشار الطلاق في المجتمعات المعاصرة

حسام الصيفي*

مقدمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على نبي الهدى محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

إن صلاح الأسرة طريق صلاح الجماعة وتماسكها كلها، وهيئات أن يصلح مجتمع وهنت فيه جبال الأسرة. كيف وقد امتن الله سبحانه على عباده بهذه النعمة، نعمة اجتماع الأسرة وتآلفها وتربطها، فقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِكُمْ بَيْنَ وَبَيْنَ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ أَفِيَالِطِيلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾^(١). إن الزوجين وما بينهما من وطيد العلاقة، وإن الوالدين، وما يترعرع في أحضانها من بنين وبنات، يمثلان حاضر المجتمع ومستقبله، ومن ثم فإن الشيطان حين يفلح في فك روابط أسرة ما، فهو لا يهدم بيتًا واحدًا، ولا يحدث شرخًا محدودًا، وإنما يوقع المجتمع بأكمله في أذى مستعر وشر مستطير، والواقع المعاصر خير شاهد.

والإسلام يفترض أولاً، أن يكون عقد الزواج على التأييد، وأن تكون الرابطة الزوجية قائمة ومستمرة بين الزوجين، حتى يفرق الموت بينهما، ولذلك لا يجوز في الإسلام تأقيت عقد الزواج بوقت معين^(٢). غير أن الإسلام وهو يحتتم أن يكون عقد الزواج مؤبدًا يعلم أنه إنما يشرع لأناس يعيشون على

* أستاذ مشارك بالجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا.

١- سورة النحل، الآية: ٧٢.

٢- تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، مجموعة الفتاوى، تحقيق: عامر الجزار وأنور الباز، دار الوفاء،

المنصورة، ط ٢، ١٩٩٨م، ج ٣٢، ص ١٠٤.

الأرض، لهم خصائصهم، وطبائعهم البشرية، لذا شرع لهم كيفية الخلاص من هذا العقد إذا تعثر العيش، وضائق السبل، وفشلت وسائل الإصلاح والتوفيق بينهما، وهو في هذا واقعي كل الواقعية، ومنصف كل الإنصاف لكل من الزوج والزوجة. فكثيراً ما يحدث بين الزوجين من الأسباب والدواعي، ما يجعل الطلاق ضرورة لازمة، ووسيلة متعيّنة لتحقيق الخير، والاستقرار العائلي والاجتماعي لكل منهما، فقد يتزوج الرجل والمرأة، ثم يتبين أن بينهما تبايناً في الأخلاق، وتنافراً في الطباع، فيرى كل من الزوجين نفسه غريباً عن الآخر، نافرًا منه، وقد يطلع أحدهما من صاحبه بعد الزواج على ما لا يحب، ولا يرضى من سلوك شخصي أو عيب خفي، وقد يظهر أن المرأة عقيم لا يتحقق معها أسمى مقاصد الزواج، وهو لا يرغب في التعدد أو لا يستطيعه، إلى غير ذلك من الأسباب والدواعي التي لا تتوفر معها المحبة بين الزوجين، ولا يتحقق معها التعاون على شؤون الحياة، والقيام بحقوق الزوجية كما أمر الله عزّ وجل، فيكون الطلاق لذلك أمرًا لا بدّ منه للخلاص من رابطة الزواج التي أصبحت عاجزة عن تحقيق المقصود منها، والتي لو ألزم الزوجان بالإبقاء عليها لأكلت الضغينة قلبيهما، ولكاد كل منهما لصاحبه، وسعى للخلاص منه بما يتهيأ له من وسائل، وقد يكون ذلك سبباً في انحراف كل منهما، ومنفدًا لكثير من الشرور والآثام، لهذا شرع الطلاق وسيلة للقضاء على تلك المفسدات، وللتخلص من تلك الشرور، وليستبدل كل منهما بزوجه زوجًا آخر، قد يجد معه ما افتقده مع الأول، فيتحقق قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كِلَا مِّن سَعَتِهِ^٣ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا^٤﴾. وهذا هو الحل الحقيقي لتلك المشكلات المستحكمة، المتفق مع منطوق العقل والضرورة وطبائع البشر وظروف الحياة^(٤).

وهذا البحث خصص لدراسة التدابير التي من شأنها أن تحول دون وقوع الطلاق أو تخفف من حدته، وهي موزعة على قسمين: قسم له علاقة بمرحلة ما قبل الزواج، وآخر له علاقة بحالة قيام الزوجية،

وعليه تم تقسيم البحث إلى أربعة مباحث، وهي:

المبحث الأول: التدابير السابقة على الزواج.

المبحث الثاني: التدابير المطلوبة أثناء الحياة الزوجية.

المبحث الثالث: تدابير إجرائية قبل وأثناء الطلاق.

المبحث الرابع: تدابير تخص القضاء.

٣- سورة النساء، الآية: ١٣.

٤- انظر: نور الدين عتر، أبغض الحلال: دراسة لتشريع الطلاق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٤، ١٩٨٥م، ص ٣٢ وما بعدها.

المبحث الأول: التدابير السابقة على الزواج

قبل أن أشرع في بيان تلك التدابير جدير بنا أن نقف عند مصطلح "التدابير"، فالتدابير عبارة عن: مجموعة الإجراءات والضوابط والقواعد التي يمكن اتخاذها من قبل الأطراف المعنية بأمر الطلاق للحد من ظاهرة الطلاق في المجتمع الإسلامي.

وتقوم فكرة التدابير الوقائية أو الاحترازية على أسس شرعية من القرآن والسنة، وسد الذرائع والمصالح المرسله. ومن عادة الشرع أنه لا يترك المفسدة حتى تقع ثم يقوم بمعالجتها، بل يبادر إلى اتخاذ كل الاحتياطات الممكنة من أجل سد المنافذ إليها، فالشريعة كما قال الإمام الشاطبي: "مبنية على الاحتياط، والأخذ بالحزم، والتحذر مما عسى أن يكون طريقاً إلى المفسدة"^(٥). وتتمثل التدابير السابقة على الزواج في الآتي:

١- حسن اختيار كلا الزوجين للآخر

أباح الشرع رؤية كلا الخاطبين لبعضهما الآخر، والتعرف على أخلاقه وسلوكه وشكله الخارجي في حدود الضوابط الإسلامية، فليس من المعقول ألا يشاهد أحد الزوجين الآخر إلا بعد عقد القران. وهنا يجب الاعتراف بأن سبب فشل كثير من الزوجات يكمن في طريقة الاختيار أساساً، وليس لأننا لا نعرف كيف ندير حياتنا الزوجية بعد الزواج. قد لا نكون نملك الحل الآن لهذا الخلل، ولكن الاعتراف وكشف خطأ، وعوار الطريقة الحالية، وعدم الدفاع عنها بحجة العادات هو البداية التي سوف تقودنا إلى إيجاد حل مناسب دينياً واجتماعياً يتناسب مع خصوصيتنا.

وقد يكون السبب مقروناً في بدايته بسوء الاختيار، حيث يكون اختيار أحد الطرفين للآخر مرتبطاً بطمعه في أمواله، فيستيقظ شعوره، ويستعيد وعيه واتزانه بعد مدة من الزواج، ويعلم أن ما فعله كان يجب أن لا يفعله حيث إن كثيراً من الفتيات يرتبطن برجال أكبر منهن سناً، وذلك لمركزهم أو لثرائهم لتكتشف إحداهن بعد الزواج أن المال وحده لا يكفي لجلب السعادة لها، فتحاول جاهدة أن تنفي خسارتها، وتبرر فشلها بالإسراف في زينتها والترفيه عن نفسها وبيتها، لتشعر بأن هناك نجاحاً وهمياً قد حققته، وما ينطبق على هذه الفتاة ينطبق على غيرها من الشباب الذين يجرون وراء المال بالزواج من مسنات، فتكون نهاية زواجهم الفشل والإحباط والتحسر والندم، وما زلنا نقول بأن حسن الانتهاء من حسن الابتداء، ولكن ما يجب علينا أن نعرفه هو أن علماء النفس المختصين في الحياة الأسرية، وعلماء الإسلام لم يتجاهلوا دور المال

٥- أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، المكتبة التجارية، القاهرة، ج ٢، ص ٢٥٣.

باعتباره سبباً من أسباب الاختيار، ولكنهم أكدوا على ضرورة إعطاء الأولوية لمعيار الدين والقيم في اختيار أحد الطرفين للآخر، فقد قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم: "تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك"، وقال في موضع آخر: "من تزوج امرأة لمالها لم يزد الله إلا فقراً، ومن تزوج امرأة لحسبها لم يزد الله إلا دناءة، ومن تزوج امرأة ليغض بصره، ويحصن فرجه، أو يصل رحمه، بارك الله له فيها، وبارك لها فيه"^(٦). وقال أيضاً: "لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوجوهن على الدين"^(٧).

لذا أقول: إنه يجب توفر الدين أولاً لأنه المرشد للعقل والضمير، ثم تأتي الصفات الأخرى التي يرغب فيها الإنسان بطبعه وبغريزته، ويميل إليها في نفسه حتى ينجح في حياته، ويكون أسرة تؤسس في بنائها على المودة والتعاطف والاختيار الصحيح، والتدين والصراحة والتقدير والاحترام والثقة والحب، لكي يصل في زواجهما الناجح إلى الأمن النفسي^(٨). فمن الواجب على كل من المتقدمين للزواج أن يضع في اعتباره أنه ليس شرطاً أن يكون الشخص ثرياً أو غنياً، بل أن يكون أهلاً للزواج، لأنه ربما كان لديه من النقائص والعيوب ما يجعله غير صالح للزواج مطلقاً، وأن هناك الكثير ممن يملكون الكفاءة والأهلية، ولكنهم ليسوا أثرياء. يقول تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَانَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِعُ عِلْمُهُ﴾^(٩).

وهنا يلفت القرآن انتباه المتزوجين إلى أن الله عزوجل سيجعل الزواج برحمته سبيلاً للغنى، وسيمد الزوجين بالقوة التي تجعلها قادرين على التغلب على أسباب الفقر، فلذلك يجب على الفتيات أو الشباب مراعاة الاختيار المتأنى السليم، وعدم الانقياد وراء الشهوات والأموال التي قد تحكم على الزوجين بالفشل بسبب عدم تفاهم وعدم الثقة وعدم الأمانة والكذب، وعدم الاحترام أو الخيانة، مما يؤدي في النهاية إلى الانفصال والطلاق^(١٠).

٦- الطبراني، المعجم الأوسط، ج ٥، ص ٣٨٨، رقم ٢٤٣٢. ومسند الشاميين، ج ١، ص ١٣، الحديث ٩.

٧- سنن ابن ماجه بشرح السندي، تحقيق: خليل مأمون الميس، دار المعرفة، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٠م، ج ٢، ص ٤١٥، الحديث ١٨٥٩.

٨- البهي الخولي، الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة، دار القلم، الكويت، ط ٥، ١٩٨٤م، ص ٣٨-٣٩.

٩- سورة النور، الآية: ٣٢.

١٠- محمد إسماعيل عيسوي أبو الريش، أركان الطلاق، مطبعة الصداقة، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ١٢٣.

٢- الكفاءة في المستوى الثقافي والاجتماعي والاقتصادي

تنازع الفقهاء في أوصاف الكفاءة فقال مالك في ظاهر مذهبه: إنها الدين، وفي رواية عنه: إنها ثلاثة: الدين والحرية والسلامة من العيوب^(١١). وقال أبو حنيفة: هي النسب والدين. وقال أحمد في رواية عنه هي: الدين والنسب خاصة. وفي رواية أخرى هي خمسة: الدين والنسب والحرية والصناعة والمال^(١٢). وإذا اعتبر فيها النسب فعنه فيه روايتان. إحداهما: أن العرب بعضهم لبعض أكفاء. الثانية أن قريشا لا يكافئهم إلا قرشي وبنو هاشم لا يكافئهم إلا هاشمي. وقال أصحاب الشافعي: يعتبر فيها الدين والنسب والحرية والصناعة والسلامة من العيوب المنفرة^(١٣). ولكن ثبت هنا أنه لا أحد من العلماء يقول: إن نكاح الفقير للموسرة باطل إن رضيت، ولا يقول: إن نكاح الهاشمية لغير الهاشمي والقرشية لغير القرشي باطل، وإنما نبهنا على هذا لأن الكثير من العلماء يحكون الخلاف في الكفاءة هل هي حق لله أو للآدمي؟ ويطلقون مع قولهم إن الكفاءة هي الخصال المذكورة، وفي هذا من التساهل وعدم التحقيق ما فيه.

ومن الإجراءات والأساليب التي تساهم في التقليل من الطلاق تهيئة وإعداد الزوجين قبل الزواج، فمن الخطأ الشديد افتراض أن مجرد وصول أي شاب أو شابة إلى سن البلوغ يعني أنها قادران على تحمل أعباء الزواج وتحمل مسؤولية تكوين أسرة. إذ لا بد من تهيئة الشباب والشابات للحياة الزوجية من خلال المناهج التعليمية لأننا نتكلم عن مستقبل مجتمع كامل، فهذه من الأساسيات التي لا بد من وضعها في مناهجنا التعليمية، وبالذات في المراحل المتقدمة حتى نستطيع أن نهيم أجيالنا من الذكور والإناث لحياة زوجية صالحة وسعيدة ومتناسكة، نستطيع الاضطلاع بدورها في بناء المجتمع. ولا بد أيضًا من إيجاد مؤسسات قادرة على أن تتعامل مع الأسرة كإقامة دورات تدريبية وندوات ومحاضرات عن كيفية التعامل في الحياة الزوجية، فالعمل المؤسسي مهم جدًا لضمان استمرار عملية تهيئة الشباب للزواج، وهذه المؤسسات لها دور فاعل وريادي في ماليزيا، إذ تقوم هذه المؤسسات بتوعية الزوجين وتعليمهما الآداب والأخلاق الإسلامية.

١١- ابن مودود الموصل، الاختيار لتعليل المختار، ج ١، ص ١٢٣-١٢٤.

١٢- ابن قدامة المقدسي: المغني، تحقيق: محمد شرف الدين خطاب وآخرين، دار الحديث، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤م، ج ٩، ص ٣٩١.

١٣- أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، الحاوي الكبير، تحقيق: علي محمد عوض وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م، ج ٩، ص ٣٤٣.

تعد الثقافة الجنسية في أحد جوانبها جزءاً من الثقافة الصحية العامة، وهي ترتبط بالثقافة الاجتماعية السائدة، والقيم الفكرية والتربوية والدينية في المجتمع.

وإذا نظرنا إلى الثقافة الجنسية من منظار الثقافة الصحية العامة، نجد أن البحث عن تنمية الوعي الصحي العام بما فيه الوعي النفسي لا بد أن يتطرق إلى القضايا الجنسية والثقافة الجنسية الصحية، نظراً للعديد من الارتباطات فيما بينها^(١٤).

ويعتقد البعض أن الثقافة الجنسية تتعارض مع الدين، أو أنها تشجع الإباحية والتفلت الأخلاقي، وهذا بالطبع غير صحيح، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الصحابة كيف يأتون أهليهم، وماذا يقولون عند الجماع، والفقهاء الإسلاميين يتناولون القضايا الجنسية بصراحة ووضوح وبشكل منطقي وعملي وأخلاقي وتربوي.

ومن الناحية الطبية تعتبر المعلومات الجنسية الصحيحة ضرورية، كي يعرف الإنسان نفسه ذكراً كان أم أنثى، والأعضاء الجنسية جزء من تكوين الجسم الإنساني، وتشبه باقي أعضائه في وظائفها الطبيعية وفي أمراضها المتنوعة، والموضوعات التي يمكن طرحها ضمن التثقيف الجنسي متعددة، وأبسطها موضوع الجوانب التشريحية لجسم الإنسان وللأعضاء الجنسية، وموضوع البلوغ ومظاهره، وموضوع الحمل والولادة، وموضوع الأمراض الجنسية بما فيها الانحرافات والشذوذ، وموضوعات النظافة والطهارة والقضايا الفقهية المتعلقة بالجنس وغير ذلك^(١٥).

فالعفة والإحصان قيمة كبيرة من قيمنا الإسلامية، وهي مما يميز مجتمعاتنا عن المجتمعات المتحللة، وحاجة الرجل إلى المرأة وحاجة المرأة إلى الرجل حاجة فطرية، ولا ينظر الإسلام إليها نظرة بعض الأديان الأخرى على أنها قذار أو رجس، بل هي غريزة فطر الله عز وجل الناس عليها، ولا بد من تسهيل الطرق الشرعية إليها، حتى لا يضطر الناس إلى ركوب الحرام، ولا سيما في عصر فتحت فيه أبواب المحرمات على مصاريعها، وكثرت فيه المغريات بالمنكر، والمعوقات عن المعروف. إن الإسلام لم يستنكف من الاستمتاع الجنسي، ولم يقلل من شأنه إذا كان حلالاً، بل قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "وفي

١٤- محمد عطية الأبراشي، عظمة الإسلام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٢١٥.

١٥- حسان المالح، (استشاري الطب النفسي)، الثقافة الجنسية الصحية .. ضرورة لا بد منها، جدة.

بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله، أباي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أليس إذا وضعها في حرام كان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر" (١٦).

والرغبة بالجماع ميل فطري عند الرجل والمرأة، وللزوجين حق فيه فلا يجوز أن يمتنع أحدهما عن تمكين الآخر منه، والأصل أن يمارس الجماع برضا الطرفين ورغبتهما، ولكن قد يحصل أحياناً أن يعتزل الزوج زوجته، أو تتمنع الزوجة عن زوجها لأسباب شتى، ولهذا وضع الفقهاء بعض الضوابط فيه، فذهب الحنفية والشافعية إلى أن للزوجة حقاً في الجماع مرة واحدة يستقر بها مهرها، هذا في القضاء، وأما ديانة فلها الحق في كل أربعة أشهر مرة، لأن الله تعالى جعل هذه المدة أجلاً لمن آلى من امرأته، أي حلف ألا يجامعها مدة من الزمن. أما المالكية والحنابلة فقد ذهبوا إلى أن الجماع واجب على الزوج إذا لم يكن له عذر بالامتناع، فإذا امتنع بلا عذر معتبر قيل له: إما وطئت وإما فارقت، قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: وأرى أن يقضى بذلك، وظاهر المذهب أنه يضرب له أجل الإيلاء "أربعة أشهر" فإن لم يعاود وطأها حق لها الفسخ.

أما من الوجهة الطبية فإن الامتناع عن الجماع لفترات طويلة بين الزوجين يضعف رابطة الحب بينهما، وقد يولد بعض الاضطرابات النفسية، وقد تنعكس هذه الاضطرابات على البدن فتصيبه بالوهن، وقد تضعف القوة الجنسية مع تطاول الزمن، وقد أشار بعض العلماء إلى هذا فقالوا: ينبغي للرجل أن يتعاهد من نفسه ثلاثاً: ينبغي أن لا يدع المشي، فإن احتاج إليه يوماً قدر عليه، وينبغي أن لا يدع الأكل، فإن أمعاه تضييق، وينبغي أن لا يدع الجماع، فإن البئر إذا لم تنزح ذهب ماؤها. وقال محمد بن زكريا: من ترك الجماع مدة طويلة ضعفت قوى أعصابه، واستد مجاريها، وتقلص ذكره، قال: ورأيت جماعة تركوه لنوع من التقشف فبردت أبدانهم، وعسرت حركاتهم، ووقعت عليهم كآبة بلا سبب، وقلت شهواتهم وهضمهم (١٧).

٤ - معرفة أهداف الزواج والعلم بالغرض منه

يرى كثيرون أن الزواج يعني وجهًا جميلاً وبيتاً منظماً وعيشاً فاخراً. وكثيرات يرين أن الزواج رجل غني وحرية واسعة وانطلاق بلا حدود. لكن ثمة غرض يجمله بعض الأزواج، وهو أن الهدف من الزواج هو تحقيق السعادة لكلا الطرفين دون ضرر أو إضرار بأي طرف آخر. وحتى تتحقق هذه المسألة فعلى الطرفين الاهتمام برعاية حقوق كل منهما، واحترام تلك الحقوق في إطار الحرص على عدم تبادل الأدوار

١٦ - مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨م،

ج ٥، ص ١٧٧.

١٧ - محمد عطية الأبراشي، عظمة الإسلام، ص ٢١٦.

بينهما، فالزوج رجل والزوجة امرأة، فحين تمتشق المرأة القوامه، وحين يضحى الرجل بغيرته متساهلاً مع زوجته، يسهل خيل الطلاق، لأن الرجل مهما قدم من تنازل سيطلب بتلك القوامه، وهي حق من حقوقه، والمرأة مهما طلبت من الرجل أن يمنحها حرية أكثر، وأن يخفف من غيرته ستطالب بها يوماً، لأنها ستدرك أنها المظلة التي تقيها عواصف الحياة، وإذا حدث الرفض من أي الطرفين لواقع تبادل الأدوار هذا فسيصهل خيل الطلاق، سيصهل الخيل ويغدو الطلاق لعبة نار يلهو بها من يشاء (١٨).

وقلة الخبرة بالزواج وطبيعته تؤثر في مجرى الحياة الزوجية، فقد تفاجأ الزوجة بواقع ومتطلبات لم تحظر على بالها، واصطدامها بهذا الواقع يجعلها تعيش بتعاسة مما تعكسه على العائلة ككل. وضعف استعداد الفتاة وتوقعاتها غير المنطقية قد يؤدي إلى فشل الحياة الزوجية، إذ تحلم الفتاة أحياناً بحياة رومانتيكية مفعمة بالحب والحنان، وبحياة خالية من المسؤوليات، وبعد الزواج تصطدم بالمسؤوليات الكبيرة الملقاة على عاتقها.

٥- الكشف الصحي قبل الزواج

لولي المرأة أن يشترط من المتقدم للخطبة إجراء الفحص إذا كانت هناك قرائن تدل على احتمال الإصابة بالمرض سواء للمخطوبة أو للذرية مستقبلاً، لاسيما في هذا الزمان الذي انتشرت فيه الأمراض المختلفة مثل نقص المناعة المكتسب "الإيدز" والزهري والسيلان وغيرها، فانتشار الإيدز بشكل مخيف حسب الإحصاءات غير المعلنة، وكما قرره أهل الاختصاص، بين أوساط الشباب في الأزمنة المتأخرة، والأمانة الملقاة على عاتق ولي المرأة، تجعل القول باشتراط الفحص إن أحب الخاطب الاقتران من الأمور المؤكدة إذا ظهرت القرائن التي تدل على احتمال الإصابة، والخطاب بالخيار إن شاء رضي بذلك وإلا اختار غيرها. وقد جاء في فتاوى اللجنة الشرعية بوزارة الأوقاف بالكويت: "يستحب، بل يجب في بعض الحالات إخبار الراغبين في الزواج بما تكشف عنه الفحوصات، سواء كان حصول التشويه بالحمل مؤكداً أو محتملاً، لقوله صلى الله عليه وسلم "الدين النصيحة" (١٩)، والله أعلم" (٢٠).

وتكمن فائدة الفحص قبل الزواج:

- إن المقدمين على الزواج يكونون على علم بالأمراض الوراثية المحتملة للذرية إن وجدت فتتسع

١٨- أفرح بنت علي الحميضي، الطلاق ولعبة النار (٣)، لها أون لاين، www.lahaonline.com.

١٩- صحيح البخاري، ج ١، ص ٩٧. وصحيح مسلم، ج ١، ص ٧٩.

٢٠- انظر: مجموعة الفتاوى الشرعية، ج ٢، ص ٣٠٧، سعود الثبيتي، نقص المناعة المكتسبة الإيدز، ص ٧٢، فهمي

مصطفى، وهكذا بدأ مرض الإيدز، ص ٧٩، محمد علي البار ومحمد صافي، الإيدز وباء العصر، ص ٣٠٥.

- الخيارات في القبول بعدم الإنجاب، أو عدم إتمام الزواج.
- تقديم النصح للمقبلين على الزواج إذا ما تبين وجود ما يستدعي ذلك بعد استقضاء التاريخ المرضي والفحص السريري واختلاف زمر الدم.
- إن عقد الزواج عقد عظيم يبني على أساس الدوام والاستمرار، فإذا تبين بعد الزواج أن أحد الزوجين مصاب بمرض فإن هذا قد يكون سبباً في إنهاء الحياة الزوجية لعدم قبول الطرف الآخر به.
- بالفحص الطبي يتأكد كل واحد من الزوجين الخاطبين من مقدرة الطرف الآخر على الإنجاب، وعدم وجود العقم، ويتبين مدى مقدرة الزوج على المعاشرة الزوجية.
- بالفحص الطبي يتم الحد من انتشار الأمراض المعدية والتقليل من ولادة أطفال مشوهين أو معاقين والذين يسببون متاعب لأسرهم ومجتمعاتهم (٢١).

٦- الإعداد النفسي والإيماني للزوجين

- أولاً: ابدأ بنفسك أولاً حتى تكون قدوة صالحة لأهل بيتك، كن أول متبع لما تأمر به، وأول منته عما تنهى عنه، وهذا الأمر كان واضحاً بيناً في هديه صلى الله عليه وسلم.
- ثانياً: اغرس شجرة الإيمان الكامل - بحسب المستطاع - بالله عزّ وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم في قلبك أولاً، ثم في قلب زوجك وأفراد أسرتك فرداً فرداً.
- ثالثاً: تعامل في كل ذلك بالرفق واللين، طارحاً كل ما تتعذر به من حرارة الطبع وسوء العشرة، أو أن هذا لا ينفع مع نساء هذا الزمان، ونحو ذلك.
- رابعاً: ابن بيتك على الألفة والمحبة والتقدير لأهل بيتك صغيرهم وكبيرهم، استخدم في ذلك كل الوسائل المشروعة "القبلة، الابتسام، الهدية، المدح والتغزل، الثناء عند الناس، الإسرار..."
- وقبل ذلك وبعده أكثر من اللجوء والاستعانة والابتهاج والتوكل على الله وحده والدعاء الصادق في الخلوات والسكنات، ثم اعزم عزيمة أهل الصدق، وليكن ذلك دأبك ليلاً ونهاراً (٢٢).

المبحث الثاني: التدابير المطلوبة أثناء الحياة الزوجية

هذه التدابير لها أقسام ثلاثة: قسم مشترك بين الزوجين، وقسم يخص الزوج، وقسم يخص الزوجة.

٢١- البار، الفحص قبل الزواج، ص ١٦-١٧. وانظر، محمود العمري، التدابير الشرعية للعناية بالجنين، ص ٢٠-٢١.

٢٢- عصام بن صالح العويد، رسول الله صلى الله عليه وسلم بين زوجاته، لها أون لاين.

أ. التدابير المشتركة بين الزوجين

١- ضرورة التفاهم بين الأزواج للتغلب على المشكلات الحياتية والنفسية

تكمن المشكلة في الحياة الزوجية في كثير من الأحيان في جهل كل من الزوجين بما ينفر الزوج الآخر منه، أو جهله بما هو سبب الغل والحقد والعداوة لدى الطرف الآخر نحوه، وهذا يعني أنه قبل كل شيء لا بد من جلسة أو أكثر بين الزوجين يستمع فيها كل منهما إلى الآخر استماع من يريد أن يفهم وجهة نظر الآخر ليرى: لعل الحق معه فيها، وليس استماع من يريد الدفاع عن نفسه، وردّ التهم عنها، وإثبات أنه ليس مخطئاً، وأن كل الخطأ هو خطأ الطرف الآخر، إذ في هذه الحالة تنعدم إمكانية فهم الطرف الآخر، وبالتالي يستحيل أن يفهم كل منهما الآخر، وبالمقابل فإن على كل من الزوجين عندما يحكي للآخر شكواه أن يتجنب لوم الآخر، وأن يتجنب اتهام الآخر، إذ الهدف من بث الشكوى إنما هو جعل الآخر يفهم معاناة الأول، ويدرك دوره فيها كي يغير من نفسه أو من سلوكه، حتى تنتهي هذه المعاناة، وليس الهدف محاكمة الطرف الآخر ومعاقبته على ما ارتكبه في حق صاحب المعاناة، ويتم ذلك بأن يقول صاحب الشكوى للآخر: عندما فعلت كذا وكذا شعرت أنا بكذا وكذا، وهذا أسلوب يحقق التعبير عن المشكلة دون الاتهام واللوم للآخر، إذ الاتهام واللوم يدفع الآخر لاتخاذ موقف الدفاع، ويجول بينه وبين فهم المشكلة المطلوب حلها. إن هذه المصارحة في إطار من الرحمة، كثيرًا ما تحقق التغيير، فيقوم الطرف الآخر بتغيير ما يستطيع تغييره في نفسه كي يستعيد بعض إعجاب زوجه به، ويقوم بتغيير سلوكه الذي كان يسيء فيه للطرف الآخر بوعي أو دون وعي. أما ما لا يستطيع الطرف الآخر تغييره في نفسه من طباع مثلاً، فلا بد فيه للطرف الأول من التقبل لهذه الطباع التي لا يجبها في زوجه، ولا بد له من تقبل العيوب الخلقية الجسدية التي من العسير أو المستحيل تغييرها، فالتقبل يمهد الطريق للحب، والحب يؤدي إلى مزيد من التقبل (٢٣). وقلة التفاهم بين الأزواج بحيث يتكلم الاثنان معاً، ولا يسمع أحدهما ما يقوله الآخر، وما يعاني منه من آلام ومصاعب، قد يعقد المشاكل، وقد يتنبه الأزواج لهذا الأمر ولكن بعد فوات الأوان (٢٤).

يؤدي التوتر والقلق والشعور بعدم الاطمئنان والكآبة، نتيجة لما تزخر به الحياة في وقتنا الحاضر من صراعات ومشاكل، إلى إصابة الفرد بالتوتر والقلق وعدم الاطمئنان، بحيث أطلق على هذا العصر عصر

٢٣- الفرحة، العدد ٥١، ديسمبر ٢٠٠٠م.

٢٤- انظر، فن الاستماع والتفاهم وأثره بين الزوجين، الشبكة الإسلامية، الإسلام اليوم، بيت الأسرة، أسباب الطلاق، ٤-

القلق والتوتر، وهذا الوضع ينعكس على المعاملة القائمة بين الزوجين مما يؤدي بالتالي إلى كثرة المشاحنات والشجار، وتوتر العلاقة فيما بينهم الذي قد يؤدي إلى فسخ ذلك العقد بالطلاق.

٢- تدعيم الاحترام بين الزوجين أمام الأبناء وأمام الناس ومع بعضهما

تؤدي الإهانات وجرح المشاعر والمواقف المنكدة إلى تأزم الأمور، وقد يؤدي فقدان السيطرة على الانفعالات إلى الضرب والإهانة، واستعمال الكلمات النابية بين الزوجين يزيد الطين بلة، وفقدان الاحترام بين الزوجين يؤدي إلى فقدان الحب، وبالتالي إلى كره الواحد منها للآخر^(٢٥). إن التصرف المثالي عندما نتلقى إساءة ممن نحب هو كظم غيظنا الذي لا بد أن يثور في نفوسنا، لكن هذا الغيظ لو بقي فيها فإنه يتراكم ويتحول إلى غل وحقد، وقد ننساه لكنه يبقى في النفس ليحول بيننا وبين حبنا للزوج أو الزوجة، لذا لا بد أن يتبع كظم الغيظ عفو عن الإساءة، وذلك بعد مرور بعض الوقت وهدوء النفس والمشاعر، والمرحلة الأرقى والفعالة جداً في التأثير في الزوج الذي أساء، هي الدفع بالتتي هي أحسن، أي: الإحسان إليه بإخلاص، ومن القلب رغم إساءته، وهذا مستحيل ما لم يسبقه العفو والمسامحة، لذا عندما امتدح الله المتقين قال عنهم: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢٦) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^(٢٧). إذن ﴿وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ﴾، وبعد كظم الغيظ ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، وبعد العفو دعوة إلى الإحسان إلى المسيء، أي: إلى الدفع بالتتي هي أحسن ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. وحتى يكون العفو والمسامحة من أعماق القلب يحتاج الإنسان إلى تكرار هذا العفو بلسانه وفي غياب الطرف المسيء مرارًا وتكرارًا، إذ التكرار باللسان مع محاولة الشعور بما يقوله اللسان يجعل الأمر يصل إلى أعماق القلب ليظهره مما فيه^(٢٧).

المسامحة والعفو والغفران من أعماق القلب، لا المسامحة بالعقل واللسان فقط، وحتى تكون المسامحة والعفو من أعماق القلب لا بد أن يتذكر الإنسان أنه هو المستفيد الأول منها، وأن الله يعوضه عما لقي من الإساءات لأن الله دعانا إلى المغفرة حتى للكفار المعاندين، ووعدنا بالثواب عليها، ومستحيل أن يكون ذلك حبًا لهم، بل هو من أجل أن تتخلص نفوس المؤمنين من مشاعر مزعجة للنفس، وبهذا يكون معنى

٢٥- الإسلام اليوم، بيت الأسرة، أسباب الطلاق، ٤-١٢-١٤٢٤هـ.

٢٦- سورة آل عمران، الآيات: ١٣٣-١٣٤.

٢٧- الفرحة، العدد ٥١، ديسمبر ٢٠٠٠م.

العفو أنه مسامحة في سبيل الله ترضي الله وتريح النفس، ولا خلاف في أن الزوج أو الزوجة أولى بها من الكفار أو الغرباء، ذلك أن الأقربين أولى بالمعروف (٢٨).

٣- التحلي بالحكمة وعدم التعلق بالمغريات والمثيرات

يمدح الرجل بالحكمة والاتزان، وكذلك المرأة، حين يكون من أول مواصفاتها أنها امرأة رزينة، متأنية، عاقلة. إن غياب تلك الصفة يعني انهيار الحياة السعيدة ثم سقوط برج الزواج. لكن الملاحظ أن كثيراً من الناس يفتقر إلى الحكمة في اتخاذ القرارات، وخصوصاً قراري الزواج والطلاق، وهما القراران اللذان يرسمان منعطفًا خطيرًا في حياة الفرد.

فزيجات كثيرة تتم دون السؤال الكافي من الزوج عن المرأة وعن تربيتها، عن دينها ومقدار تمسكها به وحرصها عليه، فقد يكتفي كثير من الرجال بالمواصفات الخارجية. وزيجات كثيرة تتم على عجل دون سؤال عن الزوج، إذ يكتفي أيضًا بمقدرته المالية أو نسبه الرفيع أو حتى أين سيقم حفل الزفاف؟ وأين سيمضي بزوجه شهرًا من "العسل"؟ وهنا تختفي الحكمة.

وتختفي الحكمة أيضًا حين يكون من أسباب الطلاق توافه الأمور؛ فهذه امرأة طلقت لأنها لم تجد طبخ وجبة ما، أين الحكمة؟ وأخرى طلقها زوجها حين أفسدت آلة من أدوات المنزل، وثالثة اختلفت وجهات نظرها مع وجهات نظر زوجها، فكان الطلاق حاسمًا لهذا الخلاف، ورابعة وخامسة. وهذا زوج أخذته العزة فرمى كلمة الطلاق على زوجته تحديًا حين طلبت ذلك. وغير ذلك أمثلة كثيرة توضح أن الحكمة قد غابت أو غيبت في مثل تلك المواقف. والحكمة مطلوبة من الطرفين، لكنها في حق الرجل أوجب، وذلك لأن زمام الأمور بيده، والمرأة قد تستعجل في لحظة انفعال، وغضب فتطلب الفراق، لكنها حين تسمع الكلمة سرعان ما تعود إلى نفسها فتندم، ولات ساعة مندم.

لو يدرك كلا الطرفين أن الاستعجال في اتخاذ القرارات وارتجالية المواقف ينتج عنه عواقب وخيمة لكليهما، لو أدركا... لكان للحكمة موقف هنا (٢٩).

البساطة التي كانت تركز عليها أمور الناس في السابق أوجدت السباحة في المعاملة، على عكس تعقيد الحياة وكثرة المغريات اليوم.

٢٨- الفرحة، العدد ٥١، ديسمبر ٢٠٠٠م.

٢٩- أفراح بنت علي الحميضي، الطلاق ولعبة النار (٣)، لها أون لاين.

بعض حالات الطلاق في الوقت الحاضر نتاج الانغماس في تلك المشيرات، فهذا زوج انجرف أمام مغريات القنوات الفضائية، فبدأ يقارن بين زوجته وبين "النساء الفضائيات"، فزهد بها لديه على أمل أن ينال ما يرى. وهذه زوجة أغرتها الحياة الدنيا وملذاتها فلم تقنع بما لديها وبنصيبتها الذي كتبه الله لها، وبدأت تقارن بين حالها وحال مثيلاتها أو حال من هو أعلى منها جاهًا وحسبًا، فزهدت في زوجها، رجاء أن يأتيها فارس على صهوة جواد أبيض! (٣٠).

٤- الشورى وعدم استقلالية الرأي

استقلالية الرأي أمر محمود إلا في بعض الحالات، حين يفرز ذلك الأمر قرارات عشوائية لا تركز على المصلحة العامة، والانفراد باتخاذ قرارات مصيرية بهذا الشكل الارتجالي أمر سيئ العاقبة. ومشاورة أهل العلم وأصحاب العقول الراجحة والآراء الصائبة في كثير من النزاعات أمر قد يقلص حالات الطلاق، خاصة عند كثير من الناس ممن يفتقد القدرة على احتواء مشكلاته بنفسه، ولنا في القرآن خير معين حين يأمر بإرسال حكم من أهله وحكم من أهلها للصلح بين الطرفين (٣١).

وبعض الأزواج لا يرى في زوجته الكفاءة التي تؤهلها للمشاركة في حوار معه حول شؤونها، وشؤون البيت، والشؤون العامة، وإذا صح اعتقاده فيها فهو خطؤه حين اختار زوجة غير مناسبة، وإن لم يصح فقد ظلمها وظلم نفسه، وفي الحالين لا نفعيه من مسؤولية التواصل معها لعله يجد الواقع أفضل من حساباته، وعله يجد عندها إجابة على سؤال يحيره أو مشاركة في همّ يحاصره (٣٢).

وصلى الله وسلم على الموحى إليه حين دخل على أم سلمة رضى الله عنها يوم الحديبية، وقال لها: هلك الناس، أمرتهم أن يخلقوا رؤوسهم، ويتحللوا من إحرامهم فلم يفعل ذلك منهم أحد. فأشارت عليه بالرأي الذي بدد حيرته، وأخرج المسلمين من هذا الموقف العصيب. ومن الخطأ الظن بأن الحوار بين الزوجين يعني البدء بالتفاهم، أو يسوده دوماً الهدوء والسلاسة، إنما الحوار ينشد الوصول إلى هذا، فإن بدأ به سعينا لتطويره واستثماره. ويحتمل الحوار الشد والجذب، كما يحتمل اختلاف وجهات النظر، ولا يكون الخوف من هذا سببًا مقبولًا في اجتناب الحوار، إنما هو السبيل للوصول إلى الحكمة تخرج على لسان أحد الطرفين، ويهدي الله لها يذنه من يشاء، أو يحسم الخلاف بأمر راشد لتحويل حصيلة النقاش لإجراءات عملية.

٣٠- المصدر السابق.

٣١- المصدر السابق.

٣٢- انظر، هبة رؤوف عزت، الشورى: فطرة وسنة ونظام، إسلام أون لاين، islamonline.net.

وبعد، فإن غياب التشاور والحوار والكلام بين الزوجين آفة منتشرة، وهي "أم المشاكل" في كثير من الحالات الزوجية المتأزمة، والرسول صلى الله عليه وسلم حين قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت" (٣٣)، كان يدعو في اعتقادنا إلى أن يحرص المؤمن على كل كلمة يقولها، ويختار الأحسن، وهو ما ندعو للتدرب عليه، ولم يكن بداهة يدعو إلى إشاعة حالة وثقافة الصمت بين المؤمنين، في بيوتهم أو خارجها، إن الحوار الذي يغيب في بيوتنا غائب أيضاً على مستوى السياسة والمجتمع والإعلام، وربما ينبغي أن يبدأ في البيت ككلمة طيبة، والكلمة الطيبة صدقة، ولمسة حانية، واتفق واختلاف، هدوء وصخب، غضب ورضا، وفي إطار الحب تفتح آفاق الحوار. هكذا الزواج وهكذا الحياة.

ب- تدابير تخص الزوج

ومن رجاحة العقل ونضج التفكير، توطئ النفس على قبول بعض المضايقات، والغض عن بعض المنغصات، والرجل وهو رب الأسرة مطالب بتوطين نفسه أكثر من المرأة على هذه الأمور، وقد علم أنها قد تكون أضعف منه، إذا حوسبت على كل شيء عجزت عن كل شيء والمبالغة في تقويمها يقود إلى كسرها، وكسرها طلاقها. يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى: "واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً".

فعلى الرجل ألا يسترسل مع ما قد يظهر من مشاعر الضيق من أهله، وليصرف النظر عن بعض جوانب النقص فيهم، وعليه أن يتذكر جوانب الخير فيهم، وإنه لو وجد في ذلك شيئاً كثيراً (٣٤). وفي مثل هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا يفرك مؤمن مؤمنة، أي: لا يبغض ولا يكره إن كره منها خلقاً رضي منها آخر" (٣٥). وليتأن في ذلك كثيراً، فلئن رأى بعض ما يكره فهو لا يدري أين أسباب الخير وموارد الصلاح. يقول عز من قائل: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (٣٦). وكيف تكون الراحة؟ وأين السكن والمودة إذا كان رب البيت ثقيل الطبع سيئ العشرة ضيق الأفق، يغلبه حمق، ويعميه تعجل، بطيء في الرضا، سريع في الغضب، إذا دخل فكثير المن،

٣٣- صحيح البخاري، ج ١٩، ص ١٠٣، الحديث ٥٦٧١. وصحيح مسلم، ج ١، ص ١٦٣، الحديث ٦٧.

٣٤- الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد، البيت السعيد، لها أون لاين.

٣٥- صحيح مسلم بتحقيق أحمد شمس الدين، كتاب الرضاع، ج ٢، ص ٣٨٣، الحديث ١٤٦٩.

٣٦- سورة النساء، الآية: ١٩.

وإذا خرج فسيئ الظن؟ وقد علم أن حُسن العشرة وأسباب السعادة لا تكون إلا في اللين والبعد عن الظنون والأوهام التي لا أساس لها، إن الغيرة قد تذهب ببعض الناس إلى سوء ظنٍ يحمله على تأويل الكلام والشك في التصرفات، مما ينغص العيش ويقلق البال من غير مستند صحيح، قال تعالى: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيْقِهِنَّ عَالِيْنَ﴾ (٣٧). كيف وقد قال صلى الله عليه وسلم: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي" (٣٨). فرحم الله رجلاً محمود السيرة، طيب السريرة، سهلاً رفيقاً، لينا رؤوفاً، رحيماً بأهله، حازماً في أمره، لا يكلف شططاً، ولا يرهق عسراً، ولا يهمل في مسؤوليته.

- القوامة للرجل والوزارة للمرأة (٣٩)

إن المتأمل يدرك بوضوح تام أن كثيراً من الأخطاء في العلاقة أو التربية بين أفراد الأسرة نابعة من قضيتين رئيسيتين:

الأولى: أن الزوج لا يقوم بحق القوامة التي ألزمه الله بها، أو لا يمكن زوجته من الصلاحيات التي أعطاها إياها الخالق سبحانه في بيتها، فيتدخل في كل صغيرة وكبيرة فيه، بحيث يهشم دورها القيادي تماماً.

الثانية: أن المرأة لا تعي تماماً أهمية هذه القوامة، ثم ماذا تعني في علاقتها الزوجية؟ أما كون المرأة لا تعي تماماً أهمية هذه القوامة فهي مشكلة شرعية تربوية، سببها عدم تربية الوالدين الفتاة على ذلك، وعلاجها يكون بتدبير أمرين: النقل والعقل.

أما النقل: فقد جاء النص على ذلك في الكتاب العزيز ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقَ لِحَدِّثٍ قَدْرِيْنْتُ حَفِظْتُ لِلْعَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ (٤٠)، وفي السنة المطهرة أحاديث كثيرة، منها: عن قيس بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو كنت امرأةً أحدًا أن يسجد لأحدٍ لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق" (٤١).

٣٧- سورة الطلاق، الآية: ٦.

٣٨- سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ٤٧٨، الحديث ١٩٧٧.

٣٩- عصام بن صالح العويد، الأسس الخمسة التي أقام النبي صلى الله عليه وسلم حياة أسرته عليها، لها أون لاين.

٤٠- سورة النساء، الآية: ٣٤.

٤١- أخرجه أبو داود في سننه، ج ٢، ص ٢٤٤، رقم: ٢١٤٠، والدارمي، ج ١، ص ٤٠٦، رقم: ١٤٦٣، وقال الحاكم ج ٢، ص ٢٠٤، رقم ٢٧٦٣: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه". وقد جاء عن عدد من الصحابة ومن طرق متعددة هو بمجموعها صحيح، وقد صحح الحديث أيضًا ابن حبان، وقال المنذري في الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٣٥: "إسناده جيد"، وحسنه الترمذي وغيره، وأغرب ابن حزم في المحلى، ج ١٠، ص ٣٣٣: في زعمه أنها باطلة. وصححه الألباني في إرواء الغليل، برقم: ١٩٩٨.

أما العقل: فمن المعلوم أن السفينة - والأسرة سفينة في بحر الحياة - لا يمكن أن تسير أبداً بقائدين لكل منهما نفس الصلاحيات، كما أنها لا يمكن أن تسير بلا قائد.

وأما كونها لا تدرك ماذا تعني هذه القوامة في علاقتها الزوجية؟ فالقوامة الشرعية تعني: قيام الرجل على المرأة بالتأديب والتدبير والحفظ والصيانة^(٤٢). والقوام: كما قال الرازي، اسم لمن يكون مبالغاً في القيام بالأمر، يقال: هذا قيم المرأة وقوامها، للذي يهتم بأمرها ويهتم بحفظها^(٤٣).

والمعروف: هو ما تعارف عليه الناس من الأخلاق والخصال الموجبة للألفة والمحبة، وترك الخصال والخلل الموجبة للشقاق والنفرة، من دون مشقة معتبرة شرعاً و عرفاً.

وعليه فلو أمرها بصلة أو زيارة أرحامه أو أرحامها ممن تكره زيارتهم، أو حضور مناسبة أو مجلس ذكر، أو أمرها بالسفر معه لحاجة ما، ونحو ذلك مما لا يشق عليها مشقة معتبرة، فيجب عليها الطاعة، وتأثم بالمخالفة، وأدلة ذلك متوافرة، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ﴾^(٤٤) عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقَ لِحَنَّتْ قَنِينَتْ^(٤٥) حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيْنُ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ ﴿٤٦﴾ فَعِظُوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاحِبِ وَأَصْرُهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَكِينًا ﴿٤٧﴾. يقول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: "المرأة تشز وتستخف بحق زوجها ولا تطيع أمره"^(٤٧). ويقول ابن كثير: "المرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المعرضة عنه". إلى أن يقول: "فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته وحرّم عليها معصيته لما له عليها من الفضل

٤٢ - الجصاص، أحكام القرآن، ج ٢، ص ١٨٨.

٤٣ - تفسير الرازي، ج ١، ص ٨٨.

٤٤ - أي: قائم على أهل بيته، فهو بمثابة الأمير في وجوب الطاعة، كما سيأتي في حديث ابن عمر.

٤٥ - القنوت هو: المداومة على الطاعة، ومن هنا أخذ شيخ الإسلام من هذه الجملة وجوب طاعة الزوج، وذلك أن "ال" في "الصالحات" جنسية تفيد الاستغراق، والمعنى "كل صالحة مداومة على طاعة زوجها"، ومفهوم المخالفة منه "كل من لم تداوم على طاعة زوجها فليست صالحة"، يقول الرازي في تفسيره، ج ٥، ص ٩٢: "واعلم أن المرأة لا تكون صالحة إلا إذا كانت مطيعة لزوجها، لأن الله قال: ﴿فَأَلْصَقَ لِحَنَّتْ قَنِينَتْ﴾ والألف واللام في الجمع يفيد الاستغراق، فهذا يقتضي أن كل امرأة تكون صالحة فهي لا بد وأن تكون قائنة مطيعة".

٤٦ - النشوز هو: الارتفاع، وهو كناية عن الترفع على الزوج بعدم الاستجابة لأمره أو نهييه.

٤٧ - تفسير الطبري، ج ٥، ص ٦٢.

والإفضال" (٤٨). بل ذهب ابن عباس وعكرمة والضحاك واختاره ابن جرير وابن كثير (٤٩) أن الفاحشة المبينة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾ (٥٠) تشمل أيضًا النشوز والعصيان وبذاء اللسان وغير ذلك. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "قوله: ﴿قَالَصَلِّحْتُ قَدِّينْتُ﴾ يقتضي وجوب طاعتها لزوجها مطلقاً من خدمة وسفر معه وتمكين له وغير ذلك" (٥١). وسئل رحمه الله عن امرأة تزوجت وخرجت عن حكم والديها فأيهما أفضل: برها لوالديها أو مطاوعة زوجها؟ فأجاب: "الحمد لله رب العالمين، المرأة إذا تزوجت كان زوجها أملك بها من أبيها، وطاعة زوجها عليها أوجب" (٥٢).

أما المشكلة الأخرى: وهي أن الزوج لا يقوم بحق القوامة التي ألزمه الله بها، فهذا من الغش البيّن لأسرته، ومن غش فليس منا. وفي لفظ للبخاري: "ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه إلا لم يجد رائحة الجنة" (٥٣).

عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "... والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم" (٥٤). وإن قصّر الزوج في حق بيته من النفقة والتربية ونحوها، فالزوجة تقوم مقامه: فعن عائشة قالت: دخلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بنيّ إلا ما أخذت من ماله بغير علمه، فهل عليّ في ذلك من جناح؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك" (٥٥). وفي لفظ: بالمعروف.

ج- تدابير تخص الزوجة

تعلم الزوجة المسلمة أن السعادة والمودة والرحمة لا تتم إلا حين تكون ذات عفة ودين، تعرف ما

٤٨- تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٤٩٣.

٤٩- المصدر السابق، ج ١، ص ٤٦٧.

٥٠- سورة النساء، الآية: ١٩.

٥١- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٣٢، ص ٢٦٠.

٥٢- المصدر السابق، ج ٣٢، ص ٢٦١.

٥٣- رواه البخاري، ج ٦، ص ٢٦١٤، رقم: ٦٧٣١.

٥٤- رواه البخاري، ج ٢، ص ٩٠١، رقم: ١٦٢٤، ومسلم، ج ٣، ص ١٤٥٩، رقم: ٢٩١٨.

٥٥- رواه البخاري، ج ٥، ص ٢٠٥٢، رقم: ٤٩٥٠، ومسلم، ج ٣، ص ١٣٣٨، رقم: ١٧١٤.

لها فلا تتجاوزته ولا تتعداه، تستجيب لزوجها فهو الذي له القوامة عليها، يصونها ويحفظها وينفق عليها، فتجرب طاعته وحفظه في نفسها وماله، تتقن عملها وتقوم به، وتعتني بنفسها وبيتها، فهي زوجة صالحة وأم شفيقة، راعية في بيت زوجها، ومسؤولة عن رعيتهما، تعترف بجميل زوجها، ولا تتنكر للفضل والعشرة الحسنة، يحذر النبي صلى الله عليه وسلم من هذا التنكر ويقول: "أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن. قيل: أيكفرن بالله؟ قال: لا، يكفرن العشير، لو أحسنت لإحداهن الدهر، ثم رأيت منك شيئاً، قالت: ما رأيت منك خيراً قط" (٥٦). بهذا يحصل التراضي وتدوم العشرة ويسود الإلف والمودة والرحمة. و"أيها امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة". ورحم الله امرأة لا تطلب غلطا، ولا تكثر لغطا، صالحة قانتة حافظة للغيب بما حفظ الله. وإليك بعض التدابير التي تخص الزوجة:

- تحريم نشر الأسرار الزوجية وخاصة المتعلقة بالفراش

مما لا شك فيه أن الزوج أو الزوجة إذا تحدث مع الناس بما يحدث بينه وبين زوجته من أمور خاصة، فإن ذلك قد يؤدي إلى افتتان الرجال بزوجة المتحدث، وبالعكس أيضا، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله: "إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه وينشر سرها" (٥٧) حتى لا يكون ذلك ذريعة لوقوع الطلاق (٥٨).

- لا تأذن لأحد من الرجال بدخول بيتها بدون علم زوجها

ومن الآداب التي شرعها الإسلام للمحافظة على البيوت من الفواحش والزنا أنه لا يجوز للمرأة أن تأذن للرجال بالدخول في بيتها حتى لا يكون ذلك ذريعة للزنا ثم للطلاق، فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه" (٥٩).

٥٦- صحيح البخاري، ج ٤، ص ١٧٣، الحديث ٢٨، وسنن النسائي، ج ٥، ص ٣٩١، الحديث ١٤٧٦.

٥٧- زكي الدين المنذري، مختصر صحيح مسلم، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٤، ١٩٨٢م، باب: من نشر سر المرأة.

٥٨- حسني شيخ عثمان، شقائق الرجال وحل مسألة المرأة في منهج الإسلام، كتاب شهري يصدر عن رابطة العالم الإسلامي، العدد ١٧٩، السنة الخامسة عشرة، سنة ١٤١٧هـ، ص ١٠٨، ١٠٩.

٥٩- أبو داود السجستاني، سنن أبي داود، دار الفكر للطباعة والنشر، باب: المرأة تصوم بإذن زوجها، ج ١، ص ٣٣٠. رواه أبو عيسى الترمذي، الجامع الصحيح، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، باب ما جاء في كراهية صوم المرأة إلا بإذن زوجها، ج ٢، ص ١٤٠. محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، مكتب التربية العربية لدول الخليج، ١٩٨٨م، باب المرأة تصوم بغير إذن زوجها، ج ١، ص ٢٩٣.

- اهتمام المرأة ببيتها وأطفالها وزوجها

اهتمام المرأة ببيتها وأطفالها وزوجها، دعامة مهمة لبناء الأسرة، والاهتمام بالهناء والزينة أمر طيب، ولكن المبالغة فيه غير محمود، ويحدث أحياناً أن تكون الزوجة في شغل شاغل عن البيت والأطفال، قد تشغل بالاهتمام الزائد بزينتها، والذهاب إلى مصفف الشعر، ومحلات الأزياء وصالونات التجميل للمحافظة على جمالها وتهمل البيت، الأمر الذي يؤدي هذا السلوك إلى نفاذ صبر الرجل، وبالتالي قد يؤدي إلى الطلاق. ومن الممارسات السيئة في هذا المجال، الاعتماد على المربية في شؤون الأسرة، فهناك من تعد ترك شؤون الأسرة والاعتماد على الخادمة والمربية من مظاهر الرقي والتقدم، بحيث تترك أمورها بيد خادمة جاهلة إضافة إلى أن هذه الخادمة لا يعينها أمر تلك الأسرة بقدر ما يعينها الراحة والريح من تلك العائلة في أغلب الحالات، فإذا تفعل بالأطفال الأبرياء عند غياب مراقبة الوالدين الواجبة، فضلاً عن ما تحمله من قيم وعادات تخالف عاداتنا وأحياناً ديننا، فترك المرأة أمور الأسرة على الغارب، وعدم مراقبة الأطفال إن كانوا بنين أو بنات يؤدي إلى عواقب وخيمة، من بينها الطلاق، وتهديم الأسرة (٦٠).

المبحث الثالث: تدابير إجرائية قبل وأثناء الطلاق

شرع الإسلام من التشريعات ما يكون علاجاً لآثار الطلاق ونتائجه، فأثبت للأم حضانة أولادها الصغار، ولقريباتها من بعدها حتى يكبروا، وأوجب على الأب نفقة أولاده، وأجور حضانتهم ورضاعتهم، ولو كانت الأم هي التي تقوم بذلك. ومن جانب آخر، نفر من الطلاق وبغضه إلى النفوس فقال صلى الله عليه وسلم: "أيا امرأة سألت زوجها الطلاق في غير بأس، فحرام عليها رائحة الجنة" (٦١)، وحذر من التهاون بشأنه فقال عليه الصلاة والسلام: "أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم" (٦٢)، قاله في رجل طلق زوجته ثلاثاً. واعتبر الطلاق آخر العلاج، بحيث لا يصار إليه إلا عند تفاقم الأمر، واشتداد الداء، وحين لا يجدي علاج سواه، وأرشد إلى اتخاذ الكثير من الوسائل قبل أن يصار إليه، فرغب الزوج في الصبر والتحمل، وإن كرهوا منهن بعض الأمور إبقاءً للحياة الزوجية، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا

٦٠- الإسلام اليوم، بيت الأسرة، أسباب الطلاق، ٤-١٢-١٤٢٤ هـ.

٦١- سنن أبي داود، ج ٦، ص ١٤٢، الحديث ١٨٩٩، وسنن الترمذي، ج ٤، ص ٤٣٣، الحديث ١١٠٨، قال أبو عيسى:

"هذا حديث حسن"، وصححه الألباني في إرواء الغليل، برقم: ٢٠٣٥.

٦٢- سنن النسائي، ج ١١، ص ٧٩، الحديث ٣٣٤٨.

سَيِّئًا وَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿٦٣﴾. وأرشد الزوج إذا لاحظ من زوجته نشورًا إلى ما يعالجها به من التأديب المتدرج: الوعظ ثم الهجر، ثم الضرب غير المبرح، ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُورَهُمْ فَعِظُوهُمْ بِكُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاحِجِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا بُعْثُوا عَلَيْكُمْ فَلَا بُعْثُوا عَلَيْكُمْ فَلَا بُعْثُوا عَلَيْكُمْ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا بُعْثُوا عَلَيْكُمْ﴾ ﴿٦٤﴾.

وأرشد الزوجة إذا ما أحست فتورًا في العلاقة الزوجية، وفي ميل زوجها إليها إلى ما تحفظ به هذه العلاقة، ويكون له الأثر الحسن في عودة النفوس إلى صفائها، بأن تنازل عن بعض حقوقها الزوجية، أو المالية، ترغيبًا له بها، وإصلاحًا لما بينها ﴿٦٥﴾. وشرع التحكيم بينهما، إذا عجزا عن إصلاح ما بينهما، بوسائلها الخاصة، كل هذه الإجراءات والوسائل تتخذ وتجرب قبل أن يصار إلى الطلاق، ومن هذا يتضح ما للعلاق والحياة الزوجية من شأن عظيم عند الله، فلا ينبغي فصل ما وصل الله وأحكمه، ما لم يكن ثم من الدواعي الجادة الخطيرة الموجبة للافتراق، ولا يصار إلى ذلك إلا بعد استنفاد كل وسائل الإصلاح. ومن هدي الإسلام في الطلاق، ومن تتبع الدواعي والأسباب الداعية إلى الطلاق يتضح أنه كما يكون الطلاق لصالح الزوج، فإنه أيضًا يكون لصالح الزوجة في كثير من الأمور، فقد تكون هي الطالبة للطلاق، الرغبة فيه، فلا يقف الإسلام في وجه رغبتها وفي هذا رفع لشأنها، وتقدير لها، لا استهانة بقدرها، كما يدعي المدعون، وإنما الاستهانة بقدرها بإغفال رغبتها، وإجبارها على الارتباط برباط تكرهه وتتأذى منه ﴿٦٦﴾. وليس هو استهانة بقدسية الزواج كما يزعمون، بل هو وسيلة لإيجاد الزواج الصحيح السليم، الذي يحقق معنى الزوجية وأهدافها السامية، لا الزواج الصوري الخالي من كل معاني الزوجية ومقاصدها. إذ ليس مقصود الإسلام الإبقاء على رباط الزوجية كيفما كان، ولكن الإسلام جعل لهذا الرباط أهدافًا ومقاصد، لا بد أن تتحقق منه، وإلا فليبلغ ليحل محلّه ما يحقق تلك المقاصد والأهداف. إن أهم ما يطلب في المعالجة:

- الصبر والتحمل ومعرفة الاختلاف في المدارك والعقول

لا بد أن يضع الزوجان في اعتبارهما مسألة التفاوت في الطباع، مع ضرورة التسامح والتغاضي عن كثير من الأمور، ولا تكون المصلحة والخير دائمًا فيما يحب ويشتهي، بل قد يكون الخير فيما لا يحب

٦٣- سورة النساء، الآية: ١٩.

٦٤- سورة النساء، الآية: ٣٤.

٦٥- البهي الخولي، الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة، ص ١٠٤، ١٠٥.

٦٦- لماذا شرع الطلاق؟ موقع إسلام انفيلد.

ولا يشتهي: ﴿وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (٦٧).

ولكن حينها يبدو الخلل، ويظهر في الأواصر تحلل، ويبدو من المرأة نشوز وتعال على طبيعتها، وتوجه إلى الخروج عن وظيفتها، حيث تظهر مبادئ النفرة، ويتكشف التقصير في حقوق الزوج والتنكر لفضائل البعل، فعلاج هذا في الإسلام صريح ليس فيه ذكر للطلاق لا بالتصريح ولا بالتلميح، يقول الله سبحانه في محكم التنزيل: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تُبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ (٦٨). قال الإمام الرازي: "الذي يدل عليه نص الآية أنه تعالى ابتداء بالوعظ ثم ترقى منه إلى الهجران في المضاجع، ثم ترقى منه إلى الضرب، وذلك تنبيه يجري مجرى التصريح في أنه مهما حصل الغرض بالطريق الأخف وجب الاكتفاء به، ولم يجز الإقدام على الطريق الأشق" (٦٩).

يكون العلاج بالوعظ والتوجيه وبيان الخطأ، والتذكير بالحقوق، والتخويف من غضب الله ومقته، مع سلوك مسلك الكياسة والأناة ترغيباً وترهيباً.

وقد يكون الهجر في المضجع والصدود مقابلًا للتعالي والنشوز، وهو في الحقيقة هجر في المضجع وليس هجراً عن المضجع. إنه هجر في المضجع وليس هجراً في البيت، ليس أمام الأسرة أو الأبناء أو أمام الغرباء. الغرض هو المعالجة، وليس التشهير أو الإذلال، أو كشف الأسرار والأستار، ولكنه مقابلة للنشوز والتعالي بهجر وصدود يقود إلى التضامن والتساوي. قال السيد رشيد رضا: "فإذا هجر الزوج زوجته وأعرض عنها في هذه الحالة احتمال أن يدعوا ذلك الشعور والسكون النفسي إلى سؤاله عن السبب، ويهبط من نشز المخالفة إلى مستوى الموافقة" (٧٠).

- المعالجة بالقصد إلى شيء من القسوة والخشونة

وقد تكون المعالجة بالقصد إلى شيء من القسوة والخشونة، فهناك أجناس من الناس لا تغني في تقويمهم العشرة الحسنة والمناصحة اللطيفة، إنهم أجناس قد يطرهم التلطف والحلم. فإذا لاحت القسوة سكن الجامح وهدأ المهتاج (٧١). نعم قد يكون اللجوء إلى شيء من العنف دواء ناجعاً، ولماذا لا يلجأ إليه

٦٧- سورة النساء، الآية: ١٩.

٦٨- سورة النساء، الآية: ٣٤.

٦٩- الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد، كيف عالج الإسلام الخلاف بين الزوجين، لها اون لاين.

٧٠- السيد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ٥، ص ٧٣.

٧١- البهي الخولي، الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة، ص ١٠٨-١٠٩.

وقد حصل التنكر للوظيفة والخروج عن الطبيعة؟

ومن المعلوم لدى كل عاقل أن القسوة إذا كانت تعيد للبيت نظامه وتماسكه، وترد للعائلة ألفتها ومودتها فهو خير من الطلاق والفراق بلا مراء، إنه علاج إيجابي تأديبي معنوي، ليس للتشفي ولا للانتقام، وإنما يستنزل به ما نشز، ويقوم به ما اضطرب.

- خوف الزوجة الجفوة والإعراض من زوجها

وإذا خافت الزوجة الجفوة والإعراض من زوجها فإن القرآن الكريم يرشد إلى العلاج بقوله: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (٧٢)، العلاج بالصلح والمصالحة، وليس بالطلاق ولا بالفسخ، وقد يكون بالتنازل عن بعض الحقوق المالية أو الشخصية محافظة على عقدة النكاح. ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾. الصلح خير من الشقاق والجفوة والنشوز والطلاق.

- الوسيلة الأخيرة في معالجة الاختلاف

عندما تفشل جميع الوسائل في علاج الاختلاف، ويصبح الإبقاء على رباط الزوجية شاقا وعسيرا، بحيث لا تحقق معه الأهداف، والحكم الجليلة التي أرادها الله عز وجل، فمن ساحة التشريع وتام أحكامه أن جعل مخرجا من هذه الضائقة، غير أن كثيرا من المسلمين يجهلون طلاق السنة الذي أباحته الشريعة، وصاروا يتلفظون بالطلاق من غير مراعاة لحدود الله وشرعه. إن الطلاق على هذه الصفة علاج، حيث تحصل فترات يكون فيها التريث والمراجعة. المطلق على هذه الصفة يحتاج إلى فترة ينتظر فيها مجيء الطهر، ومن يدري فقد تغير النفوس وتستيقظ القلوب ويحدث الله من أمره ما شاء. وفترة العدة سواء كانت عدة بالحيض أو الأشهر أو وضع الحمل فرصة للمعاودة والمحاسبة قد يوصل معها ما انقطع من حبل المودة ورباط الزوجية.

- جعل الطلاق بيد الرجل

إن فصم رابطة الزوجية أمر خطير، يترتب عليه آثار بعيدة المدى في حياة الأسرة والفرد والمجتمع، فمن الحكمة والعدل ألا تعطى صلاحية البت في ذلك، وإنهاء الرابطة تلك، إلا لمن يدرك خطورته ويقدر العواقب التي تترتب عليه حق قدرها، ويزن الأمور بميزان العقل قبل أن يقدم على الإنفاذ، بعيدا عن النزوات الطائشة، والعواطف المندفعة، والرغبة الطارئة (٧٣). والثابت الذي لا شك فيه أن الرجل أكثر

٧٢- سورة النساء، الآية: ١٢٨.

٧٣- لماذا شرع الطلاق؟ موقع إسلام انفيلد.

إدراكًا وتقديرًا لعواقب هذا الأمر، وأقدر على ضبط أعصابه، وكبح جماح عاطفته حال الغضب والثورة، وذلك لأن المرأة خلقت بطباع وغرائز تجعلها أشد تأثرًا، وأسرع انقيادًا لحكم العاطفة من الرجل، لأن وظيفتها التي أعدت لها تتطلب ذلك، فهي إذا أحببت أو كرهت، وإذا رغبت أو غضبت اندفعت وراء العاطفة، لا تبالي بما ينجم عن هذا الاندفاع من نتائج ولا تتدبر عاقبة ما تفعل، فلو جعل الطلاق بيدها لأقدمت على فصم عرى الزوجية لأتفه الأسباب، وأقل المنازعات التي لا تخلو منها الحياة الزوجية، وتصبح الأسرة مهددة بالانهيار بين لحظة وأخرى (٧٤).

وهذا لا يعني أن كل النساء كذلك، بل إن من النساء من هن ذوات عقل وأناة، وقدرة على ضبط النفس حين الغضب من بعض الرجال، كما أن من الرجال من هو أشد تأثرًا وأسرع انفعالًا من بعض النساء، ولكن الأعم الأغلب والأصل أن المرأة كما ذكرنا، والتشريع إنما يبنى على الغالب، وما هو الشأن في الرجال والنساء، ولا يعتبر النوادر والشواذ، وهناك سبب آخر لتفرد الرجل بحق فصم عرى الزوجية.

- التبعات المالية من تدابير الوقاية من الطلاق

إن إيقاع الطلاق يترتب عليه تبعات مالية، يلزم بها الأزواج: فيه يحل المؤجل من الصداق إن وجد، وتجب النفقة للمطلقة مدة العدة، وتجب المتعة لمن تجب لها من المطلقات، كما يضيع على الزوج ما دفعه من المهر، وما أنفقه من مال في سبيل إتمام الزواج، وهو يحتاج إلى مال جديد لإنشاء زوجية جديدة، ولا شك أن هذه التكاليف المالية التي تترتب على الطلاق، من شأنها أن تحمل الأزواج على التروي، وضبط النفس، وتدبر الأمر قبل الإقدام على إيقاع الطلاق، فلا يقدم عليه إلا إذا رأى أنه أمر لا بد منه ولا مندوحة عنه (٧٥). أما الزوجة فإنه لا يصيبها من مغارم الطلاق المالية شيء، حتى يحملها على التروي والتدبر قبل إيقاعه إن استطاعت بل هي تربح من ورائه مهرًا جديدًا، وبيتًا جديدًا، وعريسًا جديدًا. فمن الخير للحياة الزوجية، وللزوجة نفسها أن يكون البت في مصير الحياة الزوجية في يد من هو أحرص عليها وأضن بها.

- حث الإسلام على المراقبة لله ﴿وَلَا تُنكِهُنَّ ضَرَارًا لِنَعْنَدُوا﴾

جميع الآيات التي نزلت في الموضوع تخاطب الإنسان المتمتع بإيمان قوي، وضمير حي، لأن الإيمان هو الأصل الذي تصدر عنه جميع الأعمال الصالحة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ

٧٤- محمد إسماعيل عيسوي أبو الريش، أركان الطلاق، ص ١٣٣.

٧٥- المرجع السابق ص ١٤١.

- مراعاة وقت الطلاق

والحكمة في أنه لا بد من مراعاة وقت الطلاق بألا يكون في الحيض أو في الطهر الذي مسّها فيه، أن حالة الحيض منفرة، فالطلاق فيها لا يدل على وجود الحاجة الداعية إلى الطلاق، فوق أن الطلاق في هذه الحالة يلحق الضرر بالمرأة حيث يطول عليها العدة، لأن الحيضة التي وقع فيها الطلاق لا تحسب منها، وإن مخالطة المرأة تفرّ الرغبة فيها، فطلاقها بعد ذلك لا يدل على تحقق الحاجة إلى الطلاق مع أنه يوقع المرأة في الحيرة في أمر عدتها حيث لا تدري أحملت من تلك الواقعة فتعتد بوضع الحمل أم لم تحمل فتعتد بالأقراء، هذا مع ما يلحق الرجل من الندم إذا ما تبين له أن امرأته حامل، أما طلاقها في طهر لم يمسه فيه فيدل على وجود الحاجة إلى الطلاق، حيث أقدم عليه في هذا الوقت الذي تتوق فيه نفس الرجل إلى المرأة^(٨٠).

- المرأة إذا طلقت رجعيًا فعليها أن تبقى في بيت الزوج

ومما يجمله بعض المسلمين أن المرأة إذا طلقت رجعيًا فعليها أن تبقى في بيت الزوج لا تُخرج ولا تُخرج، بل إن الله جعله بيتا لها: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾^(٨١) تأكيدًا لحقهن في الإقامة، بإقامتها في بيت زوجها سبيل لمراجعتها، وفتح أمل في استشارة عواطف المودة وتذكير بالحياة المشتركة، فالزوجة في هذه الحالة تبدو بعيدة في حكم الطلاق، لكنها قريبة من مرأى العين. وهل يراد بهذا إلا تهدئة العاصفة وتحريك الضمائر، ومراجعة المواقف والتأني في دراسة أحوال البيت والأطفال وشؤون الأسرة؟ ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾^(٨٢). فاتقوا الله أيها المسلمون، وحافظوا على بيوتكم، وتعرفوا على أحكام دينكم، وأقيموا حدود الله ولا تتجاوزوها، وأصلحوا ذات بينكم^(٨٣).

- الحكمة من إمكانية إعادة الزوجة بعد زواجها الثاني إلى الزوج الأول

لو استعرضنا الحكمة من إمكانية إعادتها بعد زواجها الثاني إلى الزوج الأول مع شرط البقاء مدى الحياة ودفع المهر، وطلاقها منه لتبين لنا بطلان زواج التجحيشة. إذ بعد زواجها الشرعي الذي أحله الله بشرطيهما (البقاء والمهر) وعند حصول الخلاف والطلاق بقوانينه كاملة (وعظ فهجر فضرِب معنوي

٨٠- نور الدين عتر، أبغض الحلال دراسة لتشريع الطلاق، ص ١١٩.

٨١- سورة الطلاق، الآية: ١.

٨٢- سورة الطلاق، الآية: ١.

٨٣- نور الدين عتر، أبغض الحلال دراسة لتشريع الطلاق، ص ٩٢.

فحكمان) عندها ترى محاسن زوجها الأول مقارنة مع الثاني كما ذكرنا. وتدرك أنها كانت متسرعة مخطئة بعدم الانصياع للحق معه، ولا تعود تسول لها نفسها التمرد على الحق فإن أرجعها الأول بعد موت زوجها الثاني أو طلاقها منه، عادت راضية منصاعة للحق، وأمكن استمرار الحياة السعيدة بينها. بعد حدوث الطلاق لا يجوز أن يمسكها ضراراً لسلب مالها، فالله تعالى حذر من هذه النقطة بقوله الكريم: ﴿وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾. كما حذر من إعضالها بعد طلاقها، أي: التوقف بطريق زواجها بالتكلم عليها بالسوء حتى تبغض الزوج الجديد بها. ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْنَ بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ أَزْكَى لَكُمْ﴾: أرفع لشأنكم ولا سمكم عند الخلق. ﴿وَأَطْهَرُ﴾: لقلوبكم من التعلق بها. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: نتائج من يخالف. والمطلقة ينفق عليها زوجها حتى زواجها من آخر أو انقضاء أجلها ذلك لمن اتقى، ومن لم يطبق أحكام الله فسوف يحل به البلاء، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيْبَةٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ (٨٤).

المبحث الرابع: تدابير تخص القضاء

عدم النظر في دعوى الطلاق إلا بعد محاولات الإصلاح

إذا ظهر نزاع وشقاق بين الزوجين فلكل منهما أن يطلب التفريق إذا ادعى إضرار الآخر قولاً أو فعلاً به، بحيث لا يمكن مع هذا الإضرار استمرار الحياة الزوجية. ولكن لا بد من القيام ببعض محاولات الإصلاح على الشكل الآتي:

- أ- إذا كان طلب التفريق من الزوجة، وأثبتت إضرار الزوج بها، بذل القاضي جهده في الإصلاح بينها، فإذا لم يحدث الإصلاح أنذر الزوج بأن يصلح حاله معها وأجل الدعوى مدة لا تقل عن شهر، فإذا لم يتم الإصلاح بينها أحال الأمر إلى الحكّمين.
- ب- إذا كان المدعي هو الزوج، وأثبت وجود النزاع والشقاق، بذل القاضي جهده في الإصلاح بينها، فإذا لم يحدث الإصلاح أجل القاضي دعواه مدة لا تقل عن شهر أملاً بالمصالحة، وبعد انتهاء الأجل إذا أصر على دعواه، ولم يتم الصلح أحال القاضي الأمر إلى حكّمين.
- ج- يشترط في الحكّمين أن يكونا رجلين عدلين قادرين على الإصلاح، وأن يكون أحدهما من أهل

الزوجة، والآخر من أهل الزوج إن أمكن، وإن لم يتيسر ذلك حكم القاضي رجلين من ذوي الخبرة والعدالة والقدرة على الإصلاح.

د- يبحث الحكمان أسباب الخلاف والنزاع بين الزوجين معها أو مع جيرانها أو مع أي شخص يرى الحكمان فائدة في بحثها معه، وعليها أن يُدونا تحقيقاتها بمحضر يوقع عليه، فإذا رأيا إمكان التوفيق والإصلاح على طريقة مرضية أقرّاهما.

هـ- إذا عجز الحكمان عن الإصلاح، وظهر لهما أن الإساءة جميعها من الزوجة قررا التفريق بينهما على العوض الذي يريانه على أن لا يقل عن المهر وتوابعه، وإذا كانت الإساءة كلها من الزوج قررا التفريق بينهما بطلقة بائنة على أن للزوجة أن تطالبه بسائر حقوقها الزوجية كما لو طلقها بنفسه.

و- إذا ظهر للحكمين أن الإساءة من الزوجين قررا التفريق بينهما على قسم من المهر بنسبة إساءة كل منهما، وإن جهل الحال، ولم يتمكن من تقدير نسبة الإساءة قررا التفريق بينهما على العوض الذي يريان أخذه من أيهما.

ز- إذا حكم على الزوجة بأي عوض، وكانت هي طالبة التفريق فعليها أن تؤمن دفعه قبل قرار الحكمين بالتفريق، ما لم يرض الزوج بتأجيله، وفي حالة موافقة الزوج على التأجيل يقرر الحكمان التفريق على البديل، ويحكم القاضي بذلك، أما إذا كان الزوج هو طالب التفريق، وقرر الحكمان أن تدفع الزوجة عوضاً، فيحكم القاضي بالتفريق والعوض وفق قرار الحكمين.

ح- إذا اختلف الحكمان حكم القاضي غيرهما أو ضم إليهما ثالثاً مرجحاً، وفي الحالة الأخيرة يؤخذ بقرار الأكثرية.

ط- على الحكمين رفع التقرير إلى القاضي بالنتيجة التي توصلوا إليها، وعلى القاضي أن يحكم بمقتضاه إذا كان موافقاً لأحكام هذه المادة^(٨٥).

- تخفيض المهر العاجل وزيادة الأجل

ويعتبر من المصالح المرسلة تقسيم المهر الى مقدم الصداق، ويكون قليلاً لتيسير الزواج، وأما مؤخر الصداق فيكون أكثر بحيث يفكر الزوج أكثر من مرة قبل أن يقدم على الطلاق، حيث يجب المؤخر بالطلاق أو الموت، وبهذا قد أخذت القوانين المصرية وغيرها.

يجوز تعجيل المهر المسمى، وتأجيله كله أو بعضه على أن يؤيد ذلك بوثيقة خطية، وإذا حكم بالتأجيل يعتبر المهر معجلاً.

إذا عينت مدة للمهر المؤجل فليس للزوجة المطالبة به قبل حلول الأجل ولو وقع الطلاق، أما إذا توفي الزوج فيسقط الأجل، ويشترط في الأجل أنه إذا كان مجهولاً جهالة فاحشة، مثل تأجيله إلى المسيرة، أو إلى حين الطلب، أو إلى حين الزفاف، فالأجل غير صحيح، ويكون المهر معجلاً، وإذا لم يكن الأجل معيناً اعتبر المهر مؤجلاً إلى وقوع الطلاق أو وفاة أحد الزوجين.

إذا تسلمت الزوجة المهر المعجل وتوابعه أو رضيت بتأجيل المهر أو التوابع كله أو بعضه إلى أجل معين فليس لها حق الامتناع عن الطاعة، ولا يمنعها ذلك من المطالبة بحقوقها.

- أن يكون الطلاق أمام القاضي

يجوز للإمام أن يشترط على الأزواج أن لا يطلقوا زوجاتهم إلا أمام القاضي، إذا وجد من الناس التساهل أو الإسراف في الطلاق، وذلك من باب السياسة الشرعية، وهذا هو المعمول به في المحاكم الشرعية الماليزية.

الخاتمة: مقترحات وحلول عملية

- مؤسسات لمنع الطلاق قبل وقوعه، ولجنة أصدقاء المطلقات (٨٦)

حبذا لو تم إنشاء مؤسسات لمنع الطلاق قبل وقوعه، يعمل بها أخصائون وأخصائيات اجتماعيات، وتكون هذه المؤسسات تابعة لوزارة العدل، ووزارة العمل والشؤون الاجتماعية، ومن مهام هذه المؤسسات معالجة المشكلات الزوجية، فكثيراً من الناس يكون عندهم خلافات زوجية، ولا يجدون أحداً يساعدهم، وبالتالي لا بد من إيجاد هذه المؤسسات، بالإضافة إلى أهمية وجود لجان أصدقاء المطلقات لتقديم المساعدات المختلفة لهن، و يمكن أن يقول البعض إن في هذا الاقتراح تشجيعاً للمرأة على الطلاق، ولكن من هي التي تريد أن تسعى إلى الطلاق للحصول على هذه المساعدات؟ كذلك يمكن إبراز آثار ونتائج الطلاق في المناهج التعليمية وفي وسائل الإعلام المختلفة، فكثير من الناس يتخذ قرار الطلاق، وهو لا يعرف الآثار المترتبة عليه من حيث مستقبل الأبناء، وكذلك على الزوجين والمجتمع بشكل عام، مع العلم أن للطلاق آثاراً كثيرة جداً لا يمكن حصرها، ويكفي أنه يشتمت العلاقات الاجتماعية بين الأسر، ويفرق الأسرة الواحدة، وهذا بحد ذاته كاف.

٨٦- هذا اقتراح الدكتور عبد الله بن محمد الفوزان أستاذ علم الاجتماع المشارك ووكيل كلية الآداب للشؤون الأكاديمية بجامعة الملك سعود، عن شبكة ناهد للمقالات.

- مكاتب للخدمة الاجتماعية في المحكمة (٨٧)

لا بد من التفكير الجدي والعلمي في إيجاد طرق علمية للتقليل من حالات الطلاق، من مثل: وجود عنصر ثالث أخصائي اجتماعي وأخصائية إلى جانب القاضي، وطرفي المشكلة، ويكون هذا العنصر متخصصاً في الخدمة الاجتماعية حيث يقوم بدوره مع الزوجين من خلال جلسات لبحث المشكلة، وبيان آثار الطلاق حتى ما إذا انتهت الجلسات المعنية ولم يقنع الزوجان باستمرار حياتهما الزوجية، هنا ترفع المشكلة للقاضي ليكون الطلاق هو الحل لأن الطلاق في حد ذاته ليس مشكلة، وإنما شرع لحل مشكلة، وهي عدم رغبة أي من الزوجين في استمرار الحياة الزوجية أو استحالة استمراريتها.

The Measures of *Shari'ah* to limit Divorce in Contemporary Societies

The writer underlines the social and moral implications of the practice of divorce in human society in general and Islamic society in particular. He highlights the moral disincentives provided in the *Shari'ah* for this practice in the light of relevant texts. According to the writer, since the overriding concern of the *Shari'ah* is the development and protection of the healthy family life, therefore, it has taken a number of strong measures to prevent the excessive practice of divorce. He concludes that observing the commands of the *Shari'ah* is an effective means of preventing the excessive occurrence of splitting families through the practice of divorce in contemporary societies.
